الخطاب الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر
(نحو التفاعل بين الكتابة والسلوك)

د. بلقاسم ذوادي نسيمة بوزمام طالبة دكتوراه
جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج

الملخص:

تُحاول هذه الدراسة الوقوف على مدى حضور الخطاب الصوفي في الشعر الجزائري المعاصر، من خلال تقصي ظاهرة التفاعل بين الكتابة الشعرية والسلوك الصوفي للشعراء الجزائريين المعاصرين؛ وإن كان بعضهم قد وُفّقوا في تجاربهم الشعرية، في حين تعثّر آخرون ممن ظنوا أنّه بإمكانهم كتابة قصيدة صوفية من خلال إغراق نصوصهم بالمصطلحات الصوفية والرَموز المُبهمة، كما تعرّضت هذه الدراسة للتجربة الشعرية الصوفية في الجزائر وعن الأسباب والدوافع التي أدَّت إلى ظهور التيار الصوفي في الجزائر، وكذا الرمز الصوفي كآلية من آليات خلق التفاعل بين الكتابة الشعرية والسلوك عند بعض الشعراء الجزائريين وذلك من خلال مقاربة بعض نصوصهم الشعرية .

الكلمات المفتاحية: الخطاب، التصوف، الشعر، التفاعل، الكتابة.

Abstract

This study attempts to determine the extent to which the Sufi discours is present incontemporary Algerian poetry by examining the phenomenon of the interaction between poetic writing and the mystical behavior of contemporary Algerian poets. Although some of them have adapted in their poetic experiences, others have found that they can write a Sufi poem through the study of Sufi poetry in Algeria and the reasons and motives that led to the emergence of the Sufi movement in Algeria, as well as the mystical code as mechanism of interaction between poetic writing and behavior of some Algerian poets, through the approach of sometheir texts poetry.

Key words: *Discours, Sufism, poetry, interaction, writing.*

مقدمة:

يتعالق الأدب كإبداع ويتفاعل مع مختلف العلوم والفنون وحتى الأديان؛ فللأدب أبعاد معرفية وفكرية عدّة؛ إذ شهد في مساره تفاعلا مشهودا معها، ولعلَّ من نتائج هذا التفاعل ظهور أشكال أدبية جديدة تتضمن في طياتها علوما ومعارف وفلسفات يعبّر عنها في قالب أدبي إبداعي، الأمر الذي جعل من الدراسات النقدية المعاصرة تهتم بمساءلة حقيقة العلاقة بين الأدب وغيره من الحقول المعرفية والفكرية الأخرى إلى جانب البحث عن تحولات الأدب في ضوء تداخله مع هذه الحقول والتخصصات المختلفة وكذا البحث عن الإضافات التي قدمتها هذه الحقول للأدب، وعليه و وفقا لهذا الطرح يتحول الأدب إلى وعاء مستقطب لجميع العلوم والفنون والفلسفات المختلفة.

تعجّ الثقافة العربية الإسلامية بالكثير من المفاهيم التي كانت ومازالت قيد الدراسة والتحليل قصد استكناه مدلولاتها والوصول إلى معانيها الخفية؛ إذ سعى الإنسان منذ القدم للوصول إلى الحكمة المطلقة واتخذ في سبيل ذلك عدّة سبل ولعلَّ من أبرزها **التصوّف**؛ هذه اللّفظة التي أثارت جدلا كبيرا ومازالت تُثيره لحدّ الساعة.

ارتبط مفهوم التصوف كثيرا بالحقل الأدبي؛ وذلك بعدما اتجه المتصوفة إلى الكتابة الأدبية (بنوعيها الشعرية والنثرية) لنقل تجاربهم الصوفية للقارئ في قالب جماليّ إبداعي، وبهذا نشأ تفاعل بين الأدب والتصوف سواء على مستوى الكتابة أم على مستوى التجربة، خاصة الشعر الذي استطاع أن يستوعب التجارب الصوفية للشعراء ويُصوّرها بطريقة رمزية لا تخلو من الإبداع، إذ يُعدّ كلّ من الخطابين الصوفي والأدبي خطابين منتجين في الثقافة العربية على عكس العلوم الأخرى كالنحو والصرف والتفسير والبلاغة وغيرها من العلوم التي قَصَرت جلَّ اهتمامها على تفسير الدين الإسلامي.

لم يكن الخطاب الشّعري في الجزائر بمعزل عن التحولات الكبرى التي شهدها الخطاب الشعري العربي بعدما عرفت النزعة الصوفية طريقها إليه؛ إذ حاول الشعراء المتصوفة في الجزائر – كغيرهم من الشعراء العرب – محاكاة حالة المتصوف عن طريق مُيولهم إلى توظيف الرمز للتعبير عن تجاربهم ونقلها إلى القارئ لتمكينه من ولوج عوالم الجمال المطلق.

وعليه فإنَّ الحديث عن التجربة الشعرية الصوفية في الجزائر يُحيلنا إلى ملامح ثورة أدبية استطاعت أن تفرض نفسها على السَّاحة الأدبية المعاصرة، حيث أصبح الرّمز الصوفي يطغى على الكثير من النصوص الشعرية الجزائرية المعاصرة، ولعلَّ الواقع المرير الذي صار يتخبّط فيه الشاعر الجزائري والمُحاط بكلّ أنواع القهر والغربة والاغتراب الروحي جعله يطلب عالما آخر غير هذا العالم الأرضي المليء بالأحقاد والشرور، وهو ما جعله يحاول أن يسمو إلى عالم آخر أفضل وأطهر وأنقى هو العالم السماوي، وبذلك انغمس في مجازات اللغة واتخذ من الأدب وسيلة للتعبير عن تجربته الصوفية.

إنَّ ذلك الهدف المشترك بين الشاعر والمتصوف؛ والذي يتمثَّل في البحث عن عالم مثالي ومتكامل وَلَّد هذا التّمازج بين الشعر والتصوف، وظهرت بذلك نصوص شعرية تطغى عليها اللمسة الصوفية بشكل جليّ حيث " ظلت العلاقة الوثيقة بين الشاعر والصوفي محاولة بعيدة الانطلاق عن العالم العبثي، بحثا عن أفكار أكثر تجريدا تشف خلالها الحقائق الكونية "[1]ومن هذا المنطلق تلاقى كلّ من التّصوف والشّعر في مبدأ البحث عن الحقيقة.

وفي البداية أريد أن أقول إنّي قد اخترت الوقوف على الخطاب الشّعري الصوفي في الجزائر بدلا من الخطاب النثري كون شعر التّصوف أكثر إغتناءا من

[1]–عبد الحكيم العلامي: الولاء والولاء المجاور بين التصوف والشعر (نقلا عن ياسين بن عبيد الشعر الصوفي الجزائري المعاصر) صدر عن وزارة الثقافة، الجزائر، سنة 2007، ص 22.

نثره؛ لأنَّه يتماشى مع التجربة الصوفية ويتقاطع معها، إلى جانب ما يتميّز به الشّعر من قوّة الإبلاغ وسرعتها خاصة التأثير في المتلقي من خلال الجمع بين الكلمة والنغمة، منطلقة في ذلك من الإشكاليات التالية:

1- ما هي طبيعة التجربة الصوفية في الشعر الجزائري المعاصر؟
2- وإلى أيّ مدى يمكن القول بأن الشاعر الجزائري المتصوف استطاع أن يستوعب التجربة الصوفية ويستحضرها في شعره؟

1- **إطلالة على مفهوم التصوف**:

يصطدم الباحث في حقل التصوف بتعريفات كثيرة وضعت لمصطلح "تصوف" أو "صوفي" التي وضعها أقطاب التصوف القدامى والمحدثين، كمحاولة جادة لاستكناه مدلول هذا المفهوم المكتسي بالغموض؛ إذ يعدّ موضوع التصوف من الموضوعات الهامة التي ظلّت مثار جدل كبير بين العلماء الذين انقسموا إلى مؤيد

ومعارض، ولعل سبب هذا الاختلاف هو سعيهم للحفاظ على دين الإسلام نقيا صافيا كما تركه الرسول ﷺ وصحابته وأتباعه، وقد تراوحت هذه التعريفات بين المفاهيم اللغوية التي عنيت بجذر

الكلمة، وبين المفاهيم الاصطلاحية التي تقف على مدلول الكلمة، ولكي نقترب أكثر من طبيعة هذا المصطلح سنورد بعض المفاهيم اللغوية والاصطلاحية التي وضعت لكلمة تصوف؛ حيث إنَّ الخوض في أيّ علم من العلوم يستدعي بالضرورة الوقوف على ماهيته أولا؛ ذلك أنَّ البحث فيه لا يتحقق دون الاستيعاب الجيّد لمدلول المصطلح المحدد لهذا العلم، لذا ارتأيت أن أقف بصفة مختصرة على مفهوم التصوف.

يلحظ الباحث في عوالم التصوف الإسلامي كثرة التعريفات التي وضعت لهذا العلم من العلوم الإسلامية الذي صار مُؤخرا يلتحم بالأدب وبالشعر خاصة، حيث " أوصلها **الحافظ أبو نعيم*** سنة **430هـ** في كتابه

(حلية الأولياء وطبقة الأصفياء) إلى ثمانمائة تعريف؛ ذلك أنَّ المُؤلف كُلّما ترجم لواحد من الصّحابة أو التابعين إلَّا ويذكر أثناء هذه الترجمة تعريفا للتصوّف"[2].

أمَّا **الشيخ زروق***" فقد أوصل هذه التعريفات إلى ألفين"[3]ونظرا لهذا التعدد في تحديد مفهوم التّصوف سأحاول التعرّض لبعض المفاهيم التي وضعت له على سبيل المثال لا الحصر.

1-1- <u>التصوف لغة:</u>

تعددت اشتقاقات كلمة **(التصوف)** وتنوعت بتنوع العلماء

فقد ورد في لسان العرب صاف يصُوفُ صوْفا، وصاف السهم إذا طاس وعدل عن الهدف[4]

---

*الحافظ أبو نعيم: هو أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق ابن موسى ابن مهران مواليد أصبهان (336هـ- 430هـ) محدث ومؤرخ، من أهم مؤلفاته دلائل النبوة.

[2]-نور الهدى الكتاني:الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان 1429هـ-2008م، ط1، ص8.

[3]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

*الشيخ زروق: هو أحمد بن احمد بن عيسى البرنسي الفاسي المعروف بزروق الفقيه المالكي المعروف، صاحب الشروحات المعتمدة عند المالكية ومن أهم من اعتنى بجانب التربية والسلوك في الكتابات الإسلامية، من أشهر كتبه قواعد التصوف.

[4]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر **للن**شر والطباعة والتوزيع، بيروت لبنان، 2003، مادة صوف، ج8، ص103.

ومنهم من يرى بأنها مشتقة من الصوف؛ باعتباره اللباس الذي اتخذه هؤلاء العبّاد الزاهدين عن الدنيا، فالصوف رمز لحياة الزهد والتقشف التي يعيشها هؤلاء المتصوفة، إذ يؤكد على هذا المفهوم

الكلاباذي في كتابه **التعرف لمذهب أهل التصوف** حيث يقول:" إنّما سموا صوفيّة للبسهم الصوف"[5] فلباس الصوف هو لباس الأنبياء وهو لباس اقرب إلى التواضع ، كما أنه يدل على سوء الحال، يقول أبو تمام:

كانوا بُرود زمانهم فتصدّعوا فكأنّما لبس الزمان الصُّوفا[6]

ومنهم من يرى أن لفظ التصوف مشتق من الصفاء؛ ذلك أنّ الصوفي حين ينقطع عن الدنيا تصفو نفسه وتتطهر من الشهوات والمعاصي؛ حيث سميت الصوفية صوفية " لصفاء أسرارها ونقاء آثارها، وقال **بشر بن الحارث**: الصوفي من صفا قلبه الله ، وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته، فصفت له من الله عز وجل كرامته"[7]، في حين يرى بعض المستشرقين ومعهم بعض الباحثين العرب أنّ أصل الكلمة يرجع إلى اتفاقها اللغوي إلى اللفظ الإغريقي **صوفيا** والتي تعني الحكمة، والحقيقة أن اقرب هذه المفاهيم الثلاثة إلى مصطلح التصوف هو الاتفاق من كلمة الصفاء بحكم أنّ الصوفية في حقيقتها هي تصفية القلب وتطهير النفس.

1-2- **التصوف اصطلاحا**:

---

[5]- الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: عبد الحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1998، ص21.

[6]- ينظر: زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت، دط، ص44.

[7]- الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص21.

يُصادف الباحث في حقل التصوف تعريفات كثيرة لهذا المصطلح المقترن نوعا ما بجانب من الغموض، وقد تعددت التعريفات التي وضعت له بتعدد الباحثين والمهتمين بحقل التصوف، وسأُحاول أن أورد بعض التعريفات لكلمة **(تصوف)** على سبيل المثال لا الحصر كون البحث لا يسعني للوقوف عند كلّ التعريفات التي وضعت لهذا المصطلح:

- يعرفه الإمام **أبو حامد الغزالي** بقوله: "وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سوى الله وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح"([8]) فهو يربطه بالنفس والجوارح التي تكون خالصة لله عز وجل متنزهة عمن سواه.
- أما شيخ الإسلام **ابن تيمية** فيرى بأنّ التصوف له عند أهله " حقائق وأحوال معروفة قد تكلّموا في حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم: الصوفي من صفى من الكدر ، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر، التصوف كتمان المعاني وترك الدعاوي"[(9)]

- ويقول الشيخ **أحمد بن عجيبة** عن التصوف بأنه: "علم يعرف به كيفية السلوك إلى ملك الملوك... فأوله علم ووسطه عمل وآخره موهبة"[(10)]
- في حين يُعرّفه **ابن خلدون** في المقدمة بقوله: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زُخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة

([8])- أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت لبنان، دت، ط2، ص249.

([9])- أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوي، مطبعة المعارف، الرباط، 1401- 1981، ط2، ص 11-16.

([10])- أحمد بن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط1،2004 ص25-26.

للعبادة"[11]؛ أي بمعنى الابتعاد عن ملذات الدنيا وإتباع سنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلّم.

- أما صاحب كتاب **الفتوحات المكيّة** فيعرّف التصوف بأنّه: "علم الأحوال لا سبيل إليها إلا بالذوق، فلا يقدر عاقل على أن يحدّها ولا يقيم على معرفتها دليلا البتّة، كالعلم بحلاوة العسل، ومرارة الصبر، ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق وما شاكل هذا النوع من العلوم، فهذه علوم من المحال أن يعلمها أحد إلّا بأن يتصف بها ويذوقها"[12] انطلاقا من هذه التعريفات التي وضعت لمصطلح **تصوف** كان لزاما على الشاعر الصوفي أن يخلق حالة من التفاعل بين الكتابة الشعرية الصوفية وبين السلوك الصوفي الذي يمارسه؛ ذلك إنّ أصدق الشعر وأكثره تأثيرا في المتلقي هو الشعر الذي يتولّد عن تجربة حقيقيّة عايشها الشاعر بكلّ تفاصيلها.

2- التجربة الشعرية الصوفية في الجزائر:

لم يكن الخطاب الشعري الجزائري المعاصر بمعزل عن التحولات الكبرى التي شهدها الخطاب الشعري العربي، بل كان امتدادا له يُشاركه مختلف تحولاته، والحديث عن التجربة الصوفية في الجزائر يجعلنا نشهد ثورة أدبية كبيرة تكاثفت فيها جهود الشّعراء الجزائريين لإدخال الشّعر في حقل التجربة الصوفية كنوع جديد من الكتابة الإبداعية في الجزائر.

للتصوف في الثقافة الإبداعية الجزائرية بُعد زمني قديم يرتبط بالجانب العقائدي نظرا لارتباطه بالدين وضرورة المحافظة على القيم الرّوحية للأمة، وقد عرفت التجربة الشعرية الجزائرية مجموعة من العوامل التي جعلت الشعراء ينفتحون على نوع جديد من الكتابة التي اتخذوها للخروج من حالة الانغلاق والعزلة التي فرضها

---

[11]-عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، دار الجوزي، القاهرة، ط1، 2010، ص403-404.

[12]. ابن عربي: الفتوحات المكية، تح: عثمان يحيى، القاهرة، 1972، ج1، ص31.

الاستعمار الفرنسي في تلك الفترة؛ حيث كان الفرد الجزائري مسلوب الحق والحرية، فأصبح الشاعر الجزائري حينها يعيش حالة من الاغتراب الروحي في بلده، وقد جاء هذا الانفتاح الذي ذكرته سابقا بعد الاستقلال حيث عرف الخطاب الشعري الجزائري المعاصر" جملة من التلاقحات والتفاعلات النصوصية على الصعيدين

التشكيلي والدلالي"[13]إذ تداخل الخطاب الشعري الجزائري في هذه الفترة مع الخطاب الصوفي الإسلامي، أين توجَّه الشّعراء في الجزائر إلى نوع جديد من الكتابة الشعرية التي أصبحت تُحاكي مختلف الخطابات الأخرى

ولعلَّ أهمَّها وأوَّلها **الخطاب الصوفي** الذي وجد فيه شعراء الجزائر في هذه الفترة قالبا بإمكانه أن يستوعب حالة الاغتراب النفسي الذي كانوا يعيشونه بسبب قهر الاستعمار وظُلمه، ووعليه فإنَّ ظهور الكتابات الشعرية الصوفية ذات الطابع الديني بعد الاستقلال كان نتيجة للظروف التي مرّت بها الجزائر إبان تلك الفترة وهنا يمكن

الحديث عن تجربة التصوف في الشعر الجزائري والتي ظهرت في وقت كان فيه الشاعر الجزائري "دائم البحث عن الصور الجديدة والغريبة أحيانا، أو التي تخترق القوانين الطبيعية للأشياء"[14] الأمر الذي جعله يجد ضالته في الشعر الصوفي الذي يُحاول فيه الشاعر أنْ يرتقي من العالم الواقعي بكلّ مرارته وقساوسته إلى عالم سماوي مثالي طاهر نقي.

---

[13]–جمال مباركي: التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، 2003، (دط) 326.

[14]–شلتاغ عبود شراد: حركة الشعر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، (دط)، 158.

استطاع الشاعر الجزائري أن يُعبّر عن التجارب اليومية التي يعيشها بطريقة رمزية تميل إلى الإيحاء من خلال اعتماده على الشّعر الصوفي الذي يُناجي من خلاله القيم السامية والمُثل العُليا، وقد عبّرت اللغة الصّوفية عن التجارب التي يعيشها ويتقمصها الشاعر الجزائري؛ لأنَّها لغة رمزية مشحونة بالدلالات العميقة والتي تختلف اختلافا كبيرا عن اللغة العادية ، حيث تُعد اللّغة الصوفية "خير ميدان تتفتح فيه ذاتية الشاعر وفرديته، فهو

ينفصل عن المجتمع ظاهريا ، ليعيش ألامه التي هي آلام المجتمع بوجود مأساوي"[(15)]؛ حيث إنَّ اللغة في الأساس هي من يمنح للنص وجوده وثباته وعلى الشاعر وفقا لهذا الطرح أن يجعلها تتماشى وحدود تجربته الصوفية، فيُمثّلها ويُعبّر عنها لينقل تجربة صادقة للمتلقي ومن المعروف أنَّ لغة الصوفي تنصرف إلى قول المسكوت عنه والمُبهم، وهي بهذا ذات بُعد رمزي وحمولات دلالية تتساق مع غموض النفس ومكابدتها ووجعها الذاتي.

3- نحو التفاعل بين الكتابة الشعرية والسلوك الصوفي:

إنَّ ذلك التلاقح الكبير الذي ظهر بين الأدب والتصوف كان نتيجته ظهور الأدب الصوفي والشعر الصوفي تحديدا باعتبار الشعر قالبا استطاع أن يحتوي التجربة الصوفية ويحتضنها ويُعبّر عنها بشكل رمزي جمالي ومن هذا المنطلق فإنَّه يحق لنا أن نتساءل عن مدى وجود تفاعل بين الكتابة الشعرية والسّلوك الصوفي للشعراء

[(15)]–عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الشعر الجزائري المعاصر، شعر السبعينات نموذجا، مخطوط رسالة ماجستير، إشراف عبد الله حمادي، جامعة الجزائر، 1995م، ص180.

الجزائريين، أو بعبارة أخرى إلى أيّ مدى استطاع شعراء الجزائر – في الفترة المعاصرة – تمثّل التجربة الصوفية بتعقيداتها وتجسيدها في قالب شعري على جانب كبير من الرمزية والجمالية؟

لجأ العديد من شعراء الجزائر إلى توظيف الرموز الصوفية في متونهم الشعرية؛ إذ كان الشّعر سببا في الإيقاع بالمتصوفة لأنّهم استمدوا منه الرّمزية والمجاز الذي عُدَّ حقيقة وتسبّب في تأويل عباراتهم والحكم عليهم فالمتصوف "بوصفه فنانا يُدرك العلاقة بين شكل التعبير الذي يتبناه وبين رفضه لهذا الواقع المحكوم بأساليب التعبير السائدة الجامدة، محكوم بالتعبير بلغة يرفضها الصوفي، وهو عندما ينسحب من الواقع الاجتماعي

السائد، وهو على الغالب واقع السلطة فإنّه ينسحب من صور الأشياء المعروفة الظاهرة أمامه، ومن أشكال التعبير المتعارف عليها ومن اللغة السائدة التي تُعبّر عن هذا الواقع وهذا الانسحاب يلزمه أن يُحاول الكشف عن حياة أخرى غير الحياة الدنيوية بمظاهرها المتبدلة"[16] بمعنى أنَّ الشاعر الصوفي يتخذ من الشعر وسيلة يسمو بها عن هذا العالم الدنيوي الذي يتعارض مع مفاهيمه وتصوره للحياة المثالية التي يرجو أن يعيشها، كما أنَّ هذا النزوع إلى الشعر الصوفي الذي يميل في غالبه إلى طابع الغموض ناتج عن نزوع الشاعر إلى الإيحاء والترميز كوسيلة لانتقاد الواقع (السياسي خاصة) حيث لا يتسن له أن ينتقده بصورة علنية واضحة جليّة، فالرّمز الصوفي إذا هو خير وسيلة لذلك وبهذا ظهرت بعض المنظومات الشعرية الصوفية في الجزائر والتي "نظمها أصحابها (...) سواء التي تجمع بين الحديث عن الأحوال والمقامات والأدب عند الصوفية أو التي موضوعها الإشارات

---

[16]–هيفرو محمد علي ديركي: جمالية الرمز الصوفي، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2009، ط1 ص60.

الصوفية أو المدح النبوي بجميع أنماطه "[17]ومن هنا ارتبطت التجربة الصوفية أشدَّ الارتباط بالشعر حتى إنَّ "التجربة الشعرية تُساوق التجربة الصوفية وتُناسبها وتسير وفق مسارها المقامي التصاعدي من القاعدة إلى رأس

الهرم، حيث تتحقق رؤيا الكمال ويحصل الصوفي على غايته وهدفه"[18]وهو ما يُؤكد تلك العملية التفاعلية المتبادلة بين الشعر والتصوف.

شهد شعراء الجزائر في الفترة المعاصرة موجة من التوجه نحو التصوف واستدعاء رموزه، ولابدّ للتجربة الشعرية الصوفية في الجزائر من شعراء يمثّلونها ويحملون لواءها؛ إنّهم شعراء استطاعوا خلق كتابة شعرية صوفية تتجاوز كلّ الأطر لتتفتح على عوالم إبداعية، وإبداع خيالي يخترق العوالم الغامضة ولعلَّ من بين هؤلاء الذين خاضوا التجربة الصوفية في الجزائر نذكر الشاعر **محمد العيد آل خليفة** الذي كان توجهه إسلاميا منذ بداية حياته وبذلك فقد عاش تجربة صوفية معتدلة" تقوم على الكتاب والسنة وهي كذلك تلتقي مع الفكرة الإصلاحية التي تقوم على الأصول نفسها""[19]وهو ما ساعده على تمثّل التجربة الصوفية وتجسيدها في أشعاره.

والى جانب **محمد العيد** نجد شاعرا أخر هو **مصطفى محمد الغماري**" صاحب الرؤية الإسلامية وتصوف هذا الأخير إحساس مستمر بالنفي والغربة، وشوق إلى الوصال مع ثورة متأججة في نفس الشاعر تبحث عن

---

[17]–نور الهدى الكتاني: الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ص90.

[18]–عبد الوهاب الفيلالي: شعر التصوف في المغرب خلال القرن الثالث عند الهجرة، ص12.

[19]–عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، دار الهدى، الجزائر، (دت)، (دط)، ص101.

ملاذ الانفجار"[20]، ويمكننا القول بأنَّ بعض شعراء التصوف في الجزائر ممن ادعوا أنّه بإمكانهم أن يكونوا شعراء عندما يستدعون اللغة والتجربة قد تعثروا حينما اعتقدوا أنّهم بإغراق قصائدهم بمصطلحات التصوف

سيصلون إلى كتابة قصيدة صوفية، وقليلون أولئك الذين فقهوا التجربة الصوفية، وتشير الناقدة **آمنة بلعلى** إلى أنّ الشعراء الذين يستحقون تسميتهم بشعراء الرّوح في الجزائر قلّة أمثال **عبد الله العشيّ وياسين بن عبيد** فالأول فهم التجربة الصوفية وفهم منطق الكتابة الصوفية والثاني عاش التجربة الصوفية وفهم منطق الكتابة فكتبا شعرا فيه من التخلّق والتحقق ما جعل منه شعرا صوفيا معاصرا[21]ووفقا لهذا المفهوم فإنَّ الحديث عن التجربة الشعرية الصوفية في الجزائر لا يعني أنَّ كل الشعراء الذين طرقوا هذا الباب قد استطاعوا معايشة التجربة الصوفية وبالتالي تجسيدها في كتاباتهم الشعرية، حيث إنَّ هناك من الشعراء من لم يمتلك من الشعر الصوفي سوى توظيف بعض الرموز الصوفية في نصوصه، وبالتالي لم ترْقَ كتاباتهم إلى المستوى الذي يُمَكّننا من أن نقول عنها إنّها كتابة من شأنها أن تُمثّل الشعر الصوفي في الجزائر.

ولعلَّ ما أوقع هؤلاء الشعراء في مثل هاته العثرات الشعرية هو عدم تمثّل التجربة الصوفية، أو عدم مُعايشتها بتفاصيلها الأمر الذي أفقد نصوصهم الشعرية الكثير من فنيتها وجماليتها، فأضحت نصوصا فارغة لا تحوي من التصوف سوى مصطلحاته ورموزه، الأمر الذي جعل ذلك التفاعل بين الكتابة الشعرية الإبداعية

---

[20]–عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، دار هومة، الجزائر، 2005، (دط) ص180.

[21]–ينظر أمنة بلعلى: ليس كل أدب يستعمل المصطلحات الصوفية يعدّ تصوفا، مقال تحت موضوع: عن ظاهرة التصوف في الكتابة الالكترونية ، الموقع: www.annastonline.com بتاريخ 2 مارس 2015 الساعة 22:52.

والسلوك الصوفي الروحي يقتصر على فئة معينة ممن استطاعوا نظم قصائد شعرية صوفية يُحق أن يقال فيها إنَّها تمثّل الشعر الصوفي في الجزائر.

4- الرمز الصوفي؛ آلية لتحقيق التفاعل بين الكتابة الشعرية والسلوك الصوفي:

يُعدّ الرمز إحدى التقنيات التي تُضفي جمالية على النص الشعري باعتباره أكثر استخداما في هذا الجنس الأدبي دون غيره من الأجناس الأدبية الأخرى؛ حيث تُثير قضية الرمز في العمل الأدبي الكثير من الجدل وذلك نظرا لما يتميّز به الرمز من قدرة على توليد طاقة دلالية وتعبيرية من شأنها أن تنقل القارئ من المعنى المباشر للنص إلى المعاني الكامنة وراء الكلمات، ولعل توظيف الرمز الصوفي في المتون الشعرية المعاصرة هو ما يميز الشعر الصوفي عن غيره وهو ما يضفي مسحة روحية على المتن الشعري المعاصر ذلك إنّ توظيف الرمز الصوفي هو في الحقيقة استحضار لطقوس الصوفية في النصوص الشعرية وسأحاول في هذه

الصفحات أن أقف على ذلك التفاعل القائم بين الكتابة والسلوك الصوفي في التجربة الشعرية الجزائرية المعاصرة.

تتجاوز التجربة الصوفية حدود المادة لأجل الوصول إلى عوالم لا يرتادها العقل البشري ولا يغطيها الوصف الأدبي؛ ذلك إنَّها تجربة خلجات عميقة ومُستعصية الفهم، ورحلة إلى أعماق الذات وسعي نحو الكمال في أسمى مظاهره، ومحاولة الوصول إلى الأسرار الإلهية، ولا تستطيع تحقيق هذا إلا من خلال استعمال تقنية الرمز باعتبارها آلية تعتمد على الإيحاء والغموض، فالرمزية هي "طريقة في الأداء الأدبي تعتمد على الإيحاء بالأفكار

والمشاعر ولإثارتها بدلا من تقريريها أو تسميتها أو وصفها"[22] فاللغة الرمزية منفتحة من حيث الدلالة فهي لغة متعددة الدلالات والسّمات، ومن ثمَّ فهي تلجا إلى الرمز للتعبير عمَّا لا يمكن التعبير عنه، وبهذا أصبح الرمز ملاذ المتصوفة للتعبير عن خلجات أنفسهم بدلا من اللّغة العادية المباشرة، ذلك أنَّ الرمز الصوفي يُلبس القصيدة بُعدا جماليا ودلاليا ومن هنا جاء مبعث الغموض في لغة الشعر ومعانيه.

ولعلَّ توظيف الرمز الصوفي من قبل الشعراء المتصوفين نابع أساسا من كون الشاعر الصوفي "بوصفه فنانا مرهف الذوق من الطراز الرفيع وإلى العلاقة السلبية بينه وبين المجتمع، وموقف المجتمع السلبي منه، الذي فرض عليه أن يهرب ويبني عالمه الخاص المتحرر من قيود هذا المجتمع(...) خصوصية التجربة(...) فرضت على أصحابها اللجوء إلى الرمز كما تحدث عنه أقطاب الصوفية المسلمون"[23] فتناقضات المجتمع وسلبياته

جعلت قرائح الشعراء الصوفيين تنتفض، وراحوا يُعبّرون عن رفضهم لهذا الواقع وسخطهم عليه وأملهم في عالم آخر أكثر سُموا وارتقاء وذلك من خلال توظيف الرمز.

لطالما كان هاجس الشاعر المتصوف أن يتجاوز حدود هذا العالم الواقعي بتناقضاته المختلفة حيث إنَّ "الأدب الصوفي برمزيته المفهومة أحيانا والغامضة أحيانا أخرى غايته التعبير عمَّا هو كائن خلف الوجود الزائل، واكتشاف الوجود الحق الثابت الذي تتعدد تجلياته، ثم التعبير ليس عن المظاهر الانفعالية بل عن حقيقتها وسرّها الداخلي العميق، كذلك يحاول التعبير عن خبايا الذات أو لنقل عن

---

[22]–محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1432هـ – 2011م، (دط)، ص5.

[23]–هيفرو محمد علي ديركي: جمالية الرمز الصوفي، ص57.

الحقيقة المطلقة القابعة في أعماق الذات للوصول إلى السّر الحقيقي للوجود الحق الثابت، وهذا هو المغزى العميق للحديث النبوي الشريف الذي يتمسّك به المتصوفة (من عرف نفسه فقد عرف ربّه)"[24]ومن هذا الأساس استمدّ الشعراء المتصوفون العديد من رموزهم الشعرية من الكتاب والسنة النبوية الشريفة وكانوا يأخذون هذين المنبعين في حسبانهم خلال توظيفهم للرمز الصوفي.

لقد احتفت التجربة الشعرية الصوفية في الجزائر بالرمز كونه يوحّد بين ما هو دنيوي، و ما هو غيبي لما يحمله من سمات، لذلك اختار المتصوفة التعبير الموحي الرّامز وفضّلوه لأنّه عندهم اقرب من غيره لنقل تجاربهم، ولأنَّه يُؤثر التلميح على التصريح وينتج عنه الغموض الذي يكسب لغتهم حيوية وقدرة ويجدون فيه ما لا تستطيع القراءة السطحية الوصول إليه لأنَّ الرمز إيحائي بجوهره لا يقف عند حدود الأشياء المادية بل يتعداها مُقتحما عالم المجرد.

إنَّ التجارب الشعرية الصوفية في الجزائر هي تجارب خلجات عميقة يصعب فهمها وتفسيرها وكان ذلك نتيجة اتخاذ بعض الشعراء الجزائريين المعاصرين الرمز كوسيلة للإيحاء، فالرمز إيحائي بجوهره لا يكتفي بتصوير المادي بل يتجاوز ذلك ليخترق عوالم المجرّد، لأنَّ غاية الشاعر هي خلق حالة نفسية معيّنة في القصيدة وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الرمز لما له من قدرة على ولوج عوالم الذات المبهمة وفكّ الغموض الذي يكتنف الذات الشاعرة وبهذا تأسست التجربة الصوفية الشعرية في الجزائر والتي تميل بكثرة إلى توظيف الرمز كتقنية من شأنها أن تُضفي لمسة جمالية على النص الشعري الجزائري المعاصر؛ إذ لجأ الشعراء الجزائريين إلى توظيف التصوف في كتاباتهم فاستلهموا رموز التصوف الكبرى كالمرأة والخمرة ثم سرعان ما تحوّل هذا الاستلهام إلى استعادة لتاريخ التصوف من شخصيات وأحداث ويُمكننا أن نستعرض بعض النماذج الشعرية لشعراء جزائريين خاضوا

[24]–هيفرو محمد علي ديركي: جمالية الرمز الصوفي ، ص60.

التجربة الصوفية وحاولوا مُعايشتها وتجسيدها في أشعارهم، واحتلَّ بذلك الرمز مساحة واسعة في نصوصهم، فنجد شاعرا ك **مصطفى الغماري** يقول:

حبيبتي أنت يا ليلى... إن عتبا
ولج ألف لسان فيك...واضطربا
حبيبتي أنت يا ليل انتحر أسفا
من ضيائك يا سمراء... أغنيتي
طابت... فلملمت منك الورد والعنب[25]

نلحظ في هذا المقطع توظيف الشاعر لرمز المرأة مُجسَدا في كلمة **(ليلى)**؛ ورمز المرأة عند الصوفي هو انصهار بين الروحي الديني والطبيعي، أي بين ما هو إلهي وما هو إنساني، وقد جعل الشاعر هنا من الرمز الأنثوي **(ليلى)** دافعا ومحفزا للإبداع **(أغنيتي)** غير أنَّ الشاعر هنا لم يقصد من خلاله المرأة **(ليلى)** بل أراد شيئا آخر باطني؛ فالمرأة عند الصوفي أصبحت تحمل معنى آخر مُغاير تماما للمعنى السطحي وهو الذات الإلهية، فالمرأة في هذا المقطع جعلت الشاعر يسبح في عالم خيالي لا حدود له وسيَّرته عبدا لها ينبض صلواته

وحركاته وسكناته ويخشع لها وهذا ما جسَّدته كلمة **(الفجر)** التي تدل على أنَّه في هيام لا منجى منه للوصول إلى طريق النور والصّفاء سوى محبوبته **(ليلى)** ممثلة في الذات الإلهية، فالشاعر لا يقصد الأنثى المعهودة **(ليلى)** بل هي عالم آخر هو الله جلَّ وعلا.

---

[25]–مصطفى محمد الغماري: قصائد مجاهدة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982،ص117.

ويعود رمز المرأة ليحضر في ديوان مقام البوح ل **عبد الله العشي** من خلال قصيدته **تجاوب** حيث يقول فيها:

هاهي من ثبج المياه تطل قامتها الجميلة

قديسة وإلها

هاهي تقبل من وراء الأفق،

أنصع من بياض الغيم

أجمل من صباها

وأنا اقاوم خطوتي، مستعجلا

أمحو المسافة بيننا،

حتى تحل بدايتي

في منتهاها[26]

وهنا يصور الشاعر محاولة الذات المتصوفة أن تخلق حالة التوحد بالذات الإلهيّة التي عادة ما يرمز إليها بصيغة التأنيث في الشعر الصوفي، إذ يصور الشاعر هنا جمال هذه المرأة ناصعة البياض، فيراها قديسة مقبلة نحوه ، وهو مقبل نحوها متجاوزا وهم المسافة الفاصل بينهما، متوجها نحوها بهدف تحيق حالة الاتحاد.

(26)- عبد الله العشي: ديوان مقام البوح، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ،2007، دط، ص 12.

و هذه الوحدة التي يتحدث عنها الشاعر هي وحدة متميزة، وحدة معنوية غير مادية، تجعل ذات المتصوف تتوحد بالذات الإلهيّة وتتلاشى فيها، يقول الشاعر في القصيدة ذاتها:

و أمد عن بعد يدي

فتمد عن بعد ضياها

وأمدّ صوتي

فتمد لي من جنّة الفردوس فاها...

هذا هو الفردوس

" يطوي البيد طي"

يا خالقي..

يا خالقي..[27]

يعبّر الشاعر هنا عن لحظة توحد المحب بذات محبوبه (ذات الشاعر مع الذات الإلهيّة)؛ إذ يتلاشى المحب تدريجيا ليغيب عن الوجود تاركا مجال الحضور للمحبوب، وهذه الحالة من الوصال والاتحاد لا تتحقق إلا بتلاشي الذات المحبة و انحلالها في ذات المحبوب، ويصرّح الشاعر في نهاية المقطع بذات المحبوب التي

يتحدّث عنها في قصيدته، حينما قال: يا خالقي.. يا خالقي وهي إشارة إلى أنّ حالة التوحد التي كان يعبّر عنها وكان يرتجيها واستطاع أن يحققها، وهذه الوحدة بإمكانها أن تهبه جنة الفردوس التي تعتبر غايته.

---

(27)- المصدر نفسه، ص14.

ويعلن **عبد الله العشي** وحدة ذات الشاعر المتصوف بالذات الإلهيّة من خلال توظيفه لرمز **المرأة** في قصيدته الموسومة ب **أجراس الكلام**، حيث يقول:

مولاتي..

جرّدني صمت العالم من ذاتي

هل أحلم أن تتوحد ذاتك..

في ذاتي،

لتضيف إلى عمري...

أعمارْ [28]

فتوحيد الذات هو تجريدها، ف" التجلي الذاتي هو ... توحيد الذات عما سواها، وتجريدها بحيث لا يرى في الوجود إلا ذاتا واحدة بتعييناتها"[29]، وعليه فإنّ الشاعر هنا يفصح عن حبّه الإلهي وهو في ذلك يرتقي إلى مرتبة التوحد بالذات الإلهية، إذ يذهب إلى نفي المحب واثبات المحبوب، ليعود بعدها إلى إثبات حضور المحبّ وتغييب الخطاب للمحبوب لاتحاده به فالمحب والمحبوب واحد في هذه الحالة.

من خلال مقاربتي السابقة للنصوص الشعرية الصوفية لبعض الشعراء الجزائريين نلحظ بأنني ركزت على رمز المرأة المحيل على الذات الإلهية، باعتباره رمزا من شأنه أن يؤكد تلك الحركة التي عرفها الشعر الصوفي في الجزائر خلال

(28). عبد الله العشي: ديوان مقام البوح، ص 33.

(29)- عاصم إبراهيم: القاموس الصوفي، كتاب ناشرون، بيروت لبنان، 1432هـ- 2011م، ط1، ص91.

الفترة المعاصرة، والذي حاول أن يجمع بين التجربة الصوفية التي يعيشها الشاعر في حدّ ذاته وبين الكتابة الشعرية عن هذه التجربة، والحقيقة أن توظيف الرمز لدى شعراء التصوف لم يقتصر على رمز المرأة فحسب بل تعداه إلى رموز أخرى كرمز الخمرة والغربة وغيرها من الرّموز التي اتخذوها سبيلا للتعبير عن مقاصدهم وتصوير تجاربهم الصوفية التي عايشوها وتأثروا بها وبالتالي حاولوا التعبير عنها.

خاتمة:

وفي الختام يمكنني القول بأنّ الخطاب الصوفي استطاع أن يفرض نفسه على الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، باعتباره ملاذا وجد فيه الشعراء مُتسعا للتعبير عن مكبوتات كانت تخنقهم، وهي مكبوتات فرضها واقع مرير يُحس فيه الشّاعر بالاغتراب الروحي في وطنه وبين أحبته، فكان الرّمز الصوفي آلية اعتمدها الشاعر الجزائري لقول ما كان يَودّ قوله في قالب شعري يجمع بين الروحانية الدينية والعقائدية وبين الإبداع الشعري، وعليه فقد توصل هذا البحث إلى مجموعة من النتائج يمكن أن نجملها فيما يلي:

- أنّ الشاعر الصوفي مهما عبّر عن التجربة الصوفية فهو لن يستوفيها حقّها؛ فلغة الشّعر الصوفي هي محاولة للاقتراب من الحقيقة الصوفيّة، أما الفوز بتعبير واضح عنها ومواز لها فهو أمر مستحيل؛ لأنّ اللغة مهما بلغت لن تستطيع أن تواري الحقيقة وتماثلها.
- شعراء التصوف في الجزائر لم يصلوا إلى أعلى مقامات التجربة الصوفية على الرغم من إنتاجهم الشّعري الصوفي المتوافر ك **مصطفى الغماري وعبد الله العشي**؛ إذ لا يخلوا شعرهم الصوفي من ملامح التعبير الفني والإبداعي.
- التجربة الصوفية عند كلّ شاعر جزائري هي تجربة فرضتها ظروف ثقافية معيّنة خاصة بكل شاعر.

- ويظل الرمز الصوفي وسيلة استحضرها الشاعر الجزائري ليؤكد تجربته الصوفية في شعره، وإن كان بعضهم قد غال في توظيف الرموز لإضفاء لمسة صوفية على شعره.
- كما لاحظنا بعض الشّعراء الذين استطاعوا أن يَخلقوا بفهمهم الصحيح للتجربة الصوفية تفاعلا من خلال توظيف الرّمز، وعليه يبقى ذلك التفاعل المتبادل بين الكتابة والسلوك الصوفي مرهونا بفهم الشاعر للتجربة الصوفية ومعايشته إياها وبالتالي قدرته على التعبير عنها بطريقة إبداعية.

الهوامش:

1. ابن عربي: الفتوحات المكية، تح: عثمان يحيى، القاهرة، 1972، ج1.
2. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر **للنسر** والطباعة والتوزيع، بيروت لبنان،2003، مادة صوف ج8.
3. أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين،دار ابن حزم، بيروت لبنان، دت، ط2.
4. أحمد بن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 2004، ط1.
5. أحمد بن تيمية: مجموع الفتاوي، مطبعة المعارف، الرباط، 1401- 1981، ط2.
6. أمنة بلعلى: ليس كل أدب يستعمل المصطلحات الصوفية يعدّ تصوفا، مقال تحت موضوع: عن ظاهرة التصوف في الكتابة الالكترونية ، الموقع: www.annastonline.com بتاريخ 2 مارس 2015 الساعة 22:52.
7. جمال مباركي: التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، رابطة إبداع الثقافية، الجزائر 2003(دط)
8. زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت، دط، ص44.
9. شلتاغ عبود شراد: حركة الشعر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، (دط).
10. عاصم إبراهيم: القاموس الصوفي، كتاب ناشرون، بيروت لبنان، 1432هـ- 2011م، ط1.

11. الحميد هيمة: الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر، دار هومة، الجزائر، 2005، (دط).
12. عبد الحميد هيمة: الصورة الفنية في الشعر الجزائري المعاصر، شعر السبعينات نموذجا، مخطوط رسالة ماجستير، إشراف عبد الله حمادي، جامعة الجزائر، 1995م.
13. عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، دار الجوزي، القاهرة، ط1، 2010
14. عبد الوهاب الفيلالي: شعر التصوف في المغرب خلال القرن الثالث عند الهجرة، مركز الإمام الجنيد للدراسات والأبحاث الصوفية المتخصصة، المغرب، 1435هـ-2014م، ط1.
15. عبد الله العشي: ديوان مقام البوح، دار هومة. للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، دط.
16. عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، دار الهدى، الجزائر، (دت)، (دط).
17. الكلاباذي:التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: عبد الحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية مصر، 1998.
18. محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1432هـ- 2011م، (دط).
19. مصطفى محمد الغماري: قصائد مجاهدة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
20. نور الهدى الكتاني: الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان 1429هـ-2008م، ط1.
21. هيفرو محمد علي ديركي: جمالية الرمز الصوفي، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2009، ط1.